مصطلح المفارقة التداولية – مدخل نقدي –

أ.م.د. عبدالله بيرم يونس
جامعة سوران

تاريخ الاستلام تاريخ القبول
٢٠١٢/٧/٧ ٢٠١٢/٩/١٠

الملخص

أصبحت المفارقة (Paradox) محط أنظار الدارسين قديماً حتى أصبحت مصطلحاً نقدياً يتردد كثيراً في الدراسات النقدية المعاصرة. وقد وجدت المفارقة مكاناً رحباً لها في الدراسات التداولية (pragmatics). وهذا البحث محاولة للوقوف عند الجوانب الرئيسة التي تربط المفارقة مع مقولات التداولية الحديثة، وتسليط الضوء على مصطلح المفارقة التداولية الذي يتحدد من خلاله التبادلات الإنسانية والسلوكيات في مختلف الخطابات الأدبية.

وقد تناول هذا البحث جانبين مهمين التقت من خلالهما المفارقة بالتداولية. وشكلت مصطلح المفارقة التداولية.

الجانب الأول: المفارقة والقصدية.

الجانب الثاني: المفارقة وأثرها في المتلقي.

المدخل

حدّد هلميك بيافين J.Helmick Beavin ثلاثة أشكال للمفارقة:

أ- المفارقة المنطقية الرياضية أو المتناقضات. (مثل مفارقات أخيل والسلحفاة أو السهم الطائر لزينونا لأيلي).

ب- التعريفات المفارقة أو المتناقضات السيمانتيقية، حيث يتخذ الملفوظ دلالة متناقضة مثل قول "أنا كذّاب" فدلالة الملفوظ لا يمكن أن تكون حقيقية.

ج- المفارقة التداولية التي تتحدّد عبرها التبادلات الإنسانية والسلوكات وترتبط عادة بما يسمى بالإلزامات المفارقة[١].

من خلال تقسيمات هلميك السابق ندرك أن المفارقة ليست فقط عملية نقلية نقوم فيها باستبدال معنى حرفي بمعنى مجازي آخر، على وجه القلب الدلالي، إنها كذلك، مكوّن من مكونات صياغة الأبنية واستحضار روح وآلية التفكير البلاغي، مما تتحدّد من خلالها قصديات المتكلمين وسلوكيات المتلقين، وهو ما جعل الدارسين المحدثين يمارسون مبدأ إعادة البناء وإعادة إنتاج المعاني عن طريق توسيع دائرة استعمالهم المفاهيم، ونقلها من مجالها التداولي المجازي إلى مجالها التداولي الحقيقي، لذلك فإنّ تحديد المفارقة بوصفها مفهوماً بلاغياً لم ينحصر في آلية القلب الدلالي الذي دأبت عليه المقاربات اللسانية القديمة نظراً لاعتمادها على مفاهيم لسانية (الدال والمدلول، والمكون التخاطبي القائم على تفعيل وظائف العوامل)، بل تجاوزته إلى مستويات تداولية من خلال التنصيص على وظيفة المتلقي الذي يقوم بفك تسنين مقصدية المنتج[٢]، وهكذا فإنّ "ليندا هيتشيون" Linda Hutcheon انطلقت في دراستها من نقد التحليل الدلالي للخطاب الذي يحمل صفة المفارقة، معتبرة إياه أنه يبقى قاصراً عن الإلمام بظاهرة المفارقة، لأنه يقف عند حدود آلية القلب الدلالي، دون إيلاء الأهميّة للمستوى التداولي المتمثّل في مقصدية المنتج[٣].

كما ركّزت "ليندا هيتشيون" على الوظيفة التداولية بناءً على دراسة الأثر المفارق في الخطاب الأدبي الذي يضمر تقويماً قدحيّاً يهدف إلى توجيه السلوك الإنساني[٤].

يتضح مما سبق أن إدراج القيد التداولي في تحديد مفهوم المفارقة أمر في غاية الأهمية، إذ أن دلالات المفارقة لا يمكن أن تصبح مرئية إلا من خلال التفاعل التداولي الذي يجمع بين مقصدية المؤلف والأثر الوجداني المتحصل في المتلقي ، مما يقتضي سيرورة التأويل، وهو ما يدعو الباحثين إلى إعادة مساءلة مفهوم المفارقة وتوسيع مرجعياته، وهكذا سيستند هذا البحث على الوقوف على بعض هذه التصورات التي تختلف منطلقاتها وموجهاتها النظرية والمعرفية عن الدراسات السابقة التي تناولت المفارقة من منطلقات فلسفية أو لسانية أو بلاغية.

أولا: المفارقة والقصدية.

تأتي القصدية للدلالة على توجه الوعي نحو موضوعه أو نمط العلاقة التي تربط الوعي بمضمون ظاهرة ما [٥]. وقد ذهب كثير من الباحثين إلى أن المقاصد هي المعاني، وأنّ الألفاظ إنما وضعت من أجل الوصول إلى معان معينة، فالمعنى هو المقصود [٦]. وتتأكد القصدية والاهتمام بها أكثر في الخطابات التي تحمل صبغة المفارقة (Paradox)؛ إذ قيل عن المفارقة "أن تقول شيئاَ وتقصد غيره"[٧]. وقيل بأنها "صيغة بلاغية تعبّر عن القصد باستخدام كلمات تحمل المعنى المضاد"[٨].

وعلى هذا الأساس فإنّ أيَّ تجل للمفارقة سيؤدّي في الآن نفسه على مظهرين منفصلين ومتداخلين للمعنى:

- أحدهما ظاهر وبيّن وهو ما يدعى بالمعنى الحرفي المباشر.
- وثانيهما كامن مضمر مستتر، وهو ما يدعى بالمعنى المفترض[٩].

فالمفارقة إستراتيجية مهمة من استراتيجيات الخطاب يتكئ عليها المرسل لنقل مقاصده إلى المرسل إليه "تسمح بتنشيط ذاكرة التأويل لاستيعاب مجمل التحققات الدلالية: وهكذا، فأول مبدأ يجب التنبه إليه، هو محاولة التعرف على مقاصد المؤلف، لأن المقصدية، هي التي تجعل النص يصاغ بكيفية معينة، ويتبنى إستراتيجية خاصة من خلال قرائن ومؤشرات نصية وسياقية"[١٠].

وما دام أنه يمكن للمرسل أن يعبر عن المعنى الذي يريد بإستراتيجية معينة من دون تقييد نفسه بمعنى الخطاب الحرفي –كما هي الحال في المفارقة– فإن التداولية (pragmatics) وبحسب بعض الاعتبارات هي دراسة الطرق التي تتجلى بها المقاصد في الخطاب [١١]. فهي "تبحث في معرفة مقاصد المتكلم، وأغراض كلامه"[١٢] فلم يعد الباحثون في الدرس التداولي يتحدثون عن الجملة أو معنى النص أو القاعدة النحوية، بقدر ما أصبحوا يتكلمون عن معنى المرسل وحصول الفائدة لدى المخاطب من الخطاب، ووصول الرسالة الإبلاغية إليه على الوجه الذي يغلب على الظن أن يكون هو مراد المتكلم وقصده، وهي الثمرة التي يجنيها المخاطب من الخطاب[١٣].

وتتبني قصدية المتكلم في خطاب المفارقة من خلال:

أولاً التضاد:

حيث يشير مفهوم المفارقة إلى الأسلوب البلاغي الذي يكون فيه المعنى الخفي في تضاد حاد مع المعنى الظاهري، وكثيراً ما تحتاج المفارقة إلى كدٍّ ذهن، وتأمل عميق للوصول إلى التعارض، وكشف دلالات التعارض بين المعنى الظاهر والمعنى الخفي الغاطس في أعماق النص وفضاءاته البعيدة(١٤). فلذلك نجد شليجر يقول عن المفارقة بأنها شكل من النقيضة(١٥).

فإذا كان لا يتم الوصول إلى إدراك المفارقة إلا من خلال إدراك التعارض أو التناقض بين الحقائق على المستوى الشكلي للنص، فإن أعمال ليتش وبراون أوحت "بأن شكلاً من أشكال غموض المعنى هو "التضاد" الذي أصبح مقبولاً بصورة عامة ضمن حقل التداولية"(١٦) ولاحظ هؤلاء أنّ القوة المقصودة في لفظ من مثل:

"**يعيش الإنسان فوق برتقالة زرقاء**"(١٧)

يمكن أن تكون غامضة قصداً، فالملاحظ في هذا الملفوظ أنّ هناك فرقاً وتعارضاً يسجل على مستوى المليء المعجمي لمواقع البنية التركيبية المكونة من (فعل + فاعل + مركب ظرفي)؛ إذ نلاحظ أنّ المفردة (برتقالة) وردت في الملفوظ لملئ موقع المركب الاسمي داخل المركب الظرفي، وورودها هذا غير سليم، لأن مركباً ظرفياً من نوع (فوق برتقالة) لا يستقيم وروده في بنية تركيبية يكون الفعل فيها هو (يعيش) والفاعل هو (الإنسان)، وان حدث أن ورد كما هو في المثال؛ فانه يلزم استبداله بما يستقيم، وهذا يعني بأن الملفوظ قائم على المفارقة فلا بد إذن من تأويله بما يتناسب والمعنى المقصود. هنا تتدخل كفاءة المتلقي الاستدلالية للبحث عن المفردة التي يمكن أن تكون قد استبدلت بها المفردة (برتقالة) وذلك في محاولة للوصول إلى المعنى المقصود وما دام الأمر يتعلق بنموذج استعاري، فإن دليل البحث يكون هو علاقة المشابهة في ضوء ما تقدمه الكفاءة الاستدلالية، وهكذا يمكن لهذه الكفاءة أن تنطلق كالآتي:

- المرسل قال: إن الإنسان يعيش فوق برتقالة.
- والتاريخ يثبت إن الإنسان عاش على الأرض، والواقع يثبت أنه يعيش فوقها.

ففيما تشبه الأرض البرتقالة حتى تستبدل بها الملفوظ.

- الأرض والبرتقالة كلتاهما ذاتا شكل مستدير.
- عمر البرتقالة محدود ولونها النموذجي معروف.
- تصبح البرتقالة زرقاء اللون عند ضياعها.
- زرقة البرتقالة تعني تلوثها.

- الأرض تشبه البرتقالة في تعرضها للتلوث.
- إن المرسل يريد أن يقول بأنّ الأرض ملوثة [١٨].

وقريب من هذا الكلام قول المتنبي يصف ملوك زمانه فيقول [١٩]:–

أرانـــــب غيـــــر أنهـــــم ملـــــوك مفتحـــــــة عيـــــــونهم نيـــــــام

ففي هذا الملفوظ لجأ الشاعر إلى هذا الاستخدام الغريب والمفارق (أرانب غير أنهم ملوك) لإدهاش المتلقي واستفزاز فضوله، فالمتوقع أن يستعير الشاعر (أرانب، في وصف ملوك عصره، بما تستدعيه العبارة من صور ذهنية توحي أكثر مما تقرر، لكن الشاعر قلب وعكس الصورة فتزيد في الكلام حين جعل الملوك هم في الحقيقة أرانب في صورة ملوك، ليضفي على الملفوظ أبعادا جمالية تجسد التناقض القائم في الواقع وانقلاب سلم القيم[٢٠].

ومما يصدم ذوق المتلقي وينتهك خبرته هو قول الشاعر (مفتحة عيونهم نيام) حيث جمع الشاعر فيها بين النقيضين مفتحة/ نيام ليحرض كل منهما الآخر على الفعل ويعتصر طاقاته الدلالية من خلال هذه المفارقة الحادة؛ إذ كيف تكون عيون المرء مفتحة وهو نائم؟ انه أمر مخالف للحقيقة والواقع أن ملفوظ الشاعر (مفتحة عيونهم) جاءت بهذه الصيغة مبالغة في الفعل ولكنه فعل تعطلت فيه الإرادة فلم يتعد حاسة النظر إلى الرؤية والإدراك، فهم ملوك مفتحة عيونهم ترى ذل الأمة وانهيار عصرها ولكنهم نيام مغيبون غافلون، هذه المفارقة التي أكسبت الصورة ألواناً من التوتر، تجسد شعوراً حاداً بالتناقض والتضاد بين الشاعر والآخر (الملوك والأمراء)[٢١].

فالتضاد يحدث خارج النص بطريقة ويحدث في القول بطريقة أخرى لا علاقة لها بالأولى: يقع في اللغة بواسطة اللفظة وذلك بأن يجعلها مستعملها تؤدي خلاف ما تؤديه في العادة لمقاصد يتوخاها المتكلم[٢٢]. فخواص تراكيب المفارقة توفر للمتلقي (المخَاطب) ما يعينه على الوصول إلى المعنى.

ثانياً: التنغيم

يشير مصطلح التنغيم إلى التغيرات في الدرجات الصوتية التي تحدث في صوت المتكلم أثناء الحديث المتواصل وهو ناتج طبيعي عن تذبذب الأوتار الصوتية[٢٣] والتي تساعد في تحديد المعنى لان تغير النغمة قد يتبعه تغير في الدلالة في كثير من اللغات[٢٤]، فالتنغيم من السمات المساعدة على تبين مقاصد المرسل من الخطاب، وهو يجلي العلاقة بين الدلالة وبين قصد المتكلم، والتنغيم– في بعض الخطابات– هو أداء المنطوق بنغمة تهكمية، يعول عليها في أظهار التعارض أو التضاد بين ظاهر المنطوق وباطنه، وبين سطحه وعمقه، وهي نوع من التهكمية الذي يبدو ذما في ثوب المدح، كأن يقال مثلاً: ما تريد السيادة؟ على شكل نغمة

تظلميه، أو يقال في صيغة عالية لإظهار التهكم على المستويين اللفظي والتركيبي[٢٥]، وتمثل السمات التنغيمية "مصدراً مهما للمعارف حول البنى والمقاصد التي يولها المرسل عنايته في الخطاب" [٢٦] ودور التنغيم في الدلالة على القصد يوضح لنا بصفة أجلى العلاقة بين الدلالة وبين قصد المرسل، وهي ليست علاقة قارّة واحدة، بل هي علاقة ذات درجات متفاوتة ومتدرجة [٢٧].

وقد اعتاد أهل الخطاب– كما يقول التداوليون– استخدام تغيير الشفرة اللغوية على وجه التحديد لتقديم الشخصيات والتعريف بها وإبراز خواصها عن طريق إدخال صوت مغاير لصوت (فاعل) الخطاب الذي يحتفظ بلغة متجانسة وخاصة له، فاللهجات المتفاوتة والمؤشرات التعبيرية لا تربط ببعضها كتعبير عن مضمون فحسب، بل تقوم –بالإضافة إلى مواجهة مشكلات الدقة وقابلية التعبير عن نفس المضمون– بتدخلات واضحة في تحديد شخصيات المشاركين في عمليات التواصل، إن إعادة الصياغة غالباً ما تتضمن الإبقاء على بعض عناصر القول الأول من تعبيرات مميزة وعلامات تعجب واستفهام، وترجيعات وتكرار وروابط استدلالية وسببية وإشارات أخرى لغوية من قبيل الخطاب المباشر، وعندئذ فإن (فاعل الخطاب) يدخل نفسه في الشخصية التي تتكلم ويتحدث من خلالها كأنه قناع له، مما يكشف عن تراوح القول بين المنظور الخارجي واتخاذ موقف الشخصية المنقول عنها، الأمر الذي يؤدي بالضرورة إلى نوع من التداخل بين الفواعل، ويرتبط بذلك تحليل أنصار هذا الاتجاه في الدراسة التداولية للخطاب لإشكال "التباعد" مما تنجم عنه صور بلاغية عامة بالغة الأهمية كالسخرية والتهكم والمحاكاة؛ إذ أن ظاهرة التباعد في الخطاب تستحق عناية خاصة؛ فعندما يعمد المتكلم إلى اتخاذ موقف لا يدل على التبني الكامل لما يقول، فإن هذا يؤدي إلى خلق مفارقة واضحة، وقد يتم ذلك عن طريق علامات التنصيص أو غيرها كمظاهر الضجيج وتعبيرات الوجه وأوضاع الجسد وحركات الأيدي ومحتويات الوعاء الزماني، مما له كبير الأثر في الإيحاء والفهم [٢٨]. وكلها عوامل متى أُسيء استغلالها شوهت المقاصد، وأعاقت الوصول إلى لب نتاج الدلالة الحقة التي هي وليدة علاقة العلامات بمستعمليها، بوصفهم أحياء عاملة، ذوي أبعاد متعددة [٢٩].

إن عبارة مثل:

"**أحسنت**"

تدل في بعض الأحيان على السخرية والاستهزاء إذا خوطب بها مصاحباً لإمالة الصوت أو هزِّ الرأس، كما قد تحمل العبارة دلالة التوبيخ ممزوجاً بالغضب إذا كان المخاطب أباً، والسامع ولداً فرط في أمر كان ينبغي عليه أن يحسن فيه، فتلقى العبارة في عكس مدلولها الحرفي من باب التعريض زيادة في اللوم [٣٠]. ويصدق هذا على سائر المفردات والعلامات

على معنى "أن للصورة أبعادها التركيبية والدلالية والتداولية، وللون، وللحركة، وللرائحة، وللإماءة، ولغير ذلك من صنوف العلامات، ولها ما للمفردات من معانٍ قريبة وأخرى بعيدة"[٣١]. وفي مثل هذه الحال "سيدل المنطوق على ضد معناه الحقيقي أو الحرفي، من أجل ذلك سيستلزم المنطوق نغمة هابطة ساخرة و جهارة صوت منخفضة"[٣٢].

وهذا يؤكد قاعدة تواصلية هامة في الخطابات التي تحمل صفة المفارقة مفادها أن المعاني غير كامنة فيما يستعمل المتكلم من أدوات لغوية، بل بالكيفية التي يوظفها بها حتى تعبر عن مقاصده ونواياه.

ثالثاً: السياق

يؤدي السّياق دوراً هامّاً في كشف مقاصد المتلفظ بالخطاب وتوضيح نواياه الظاهرة والخفية من أجل إفادة السّامع معنى يتوخاه من خطابه[٣٣]، ولا يتم التفكير في خطاب المفارقة بمنظور قصدي إلا في إطار سياق يحدد قيمته، فالخطاب لا يعبر عنه بواسطة الجملة فقط، ولكن يعبر عنه في سياق معين وفق المعادلة التالية:

قول + سياق = رسالة

ولمعرفة الرسالة لا يجب فقط معرفة اللغة بل يجب كذلك معرفة السياق [٣٤] الذي يشكل "المرجع الذي يحال إليه المتلقي كي يتمكن من إدراك مادة القول، ويكون لفظياً أو قابلاً للشرح اللفظي"[٣٥].

أي أن السياق يمثل خلفية للقول تجعله يفهم بمقتضاها، فكل كلمة، أو جملة توضح في إطار أو نسق معين يعتبر هذا الإطار أو النسق سياقاً لها، فالكلمة المفردة لها سياقها، والتركيب له سياقه، والنص له سياقه وكل هذه السياقات تتشابك لتنضوي تحت السياق العام للنص [٣٦]، واستناداً لهذا السياق ينطلق المتلقي "في كشف قصد المتلفظ بالخطاب، حيث تشكل أدوات النص اللغوي وخواصه التركيبية إضافة لما يكتنف النص من أحوال، قرائن مساعدة في كشف المقاصد والأغراض التواصلية للكلام"[٣٧].

فالمتلقي يستند إلى معطيات السياق والمقام في بحثه عن قصد القائل (المتكلم) بخاصة إذا كانت القوّة اللزوميّة متّسعة كما هي الحال في خطاب المفارقة بحيث تتجاوز المفردات التي يتركّب منها القول معجمياً ودلالياً.

إن معاينة السياق التالي الذي نفترض فيه أنه يوم ممطر عاصف هي التي تجعلنا نحكم على الملفوظ:

"**يا له من يوم جميل**"

على أنه مفارقة تهكمية، ومن ثم فإن دلالته التعجبية غير مقصودة.

وكذلك نفهم قول الأب لابنه الذي حصل مؤخراً على علامة سيئة في امتحان الرياضيات:

"**سبحان الله ما أبرعك في الرياضيات**"

على أنه تعبير على سبيل المفارقة فهو لا يكون بصدد تهنئته أو التعبير عن ارتياحه لتفوقه، بل إنه يعبر له عن عدم رضاه ويبلغه أيضاً رغبته بضرورة مضاعفة جهوده. والذي قادنا إلى هذا التأويل هو معرفتنا المسبقة بالسياق الذي ورد من خلاله هذا الملفوظ.

وتوجد في صلب الخطاب –عادة– مؤشرات لفظية تسبق الخطاب المفارق أو تتبعه. وتساعد القارئ على حسن التأويل وإلا فإن الخطاب يكون مبهماً محتملاً لوجهين من الدلالة يعسر ترجيح احدهما، فحين يقول الراوي في "حكاية العقاب" لعز الدين المدني:

" **ما أجمل الحديقة**"

فإن القارئ يحمل القول على التهكم لا لأن القول تهكمي في ذاته وإنما لأنه يخالف وصف الحديقة في السياق: "لا عصافير، لا فراشات، لا حمام، لا نسيم، لا شيء إلا ذلك الكلب الجهنمي المعربد"[٣٨]. فالسياق هو الذي يجعل القول: ما أجمل الحديقة تهكماً يراد به ضد ما يدل عليه ظاهر اللفظ [٣٩].

فالتضاد هنا بين القول وسياقه (أو النتيجة وسببها) هو الذي جعل القول تهكمياً، ويزول التهكم بزوال التضاد: فلو قال الراوي: ما أقبح الحديقة لما جرى قوله على المفارقة وذلك لحصول التناسب بين السبب والنتيجة [٤٠].

وإذا كان التهكم بالطريقة التي بيناها، أي بجعل النتيجة مضادة أو مخالفة لسبب بشروط تقيد التضاد أو المخالفة، فإن القول لا يمكن أن يفيد المعنى وضده لأنه إذا حمل على ظاهره، فإنه لا يتفق مع السياق وبالتالي لا يكون مفيداً، وإذا حمل على خلاف ظاهره فإنه يفقد صفة التهكم، فليست المسألة في اعتقادنا منحصرة في معنى ظاهر غير مقصود وآخر ضده أو خلافه وهو ضمني مقصود: فإذا كان المعنى الظاهر غير مقصود فلماذا لا يكتفي القائل بالمعنى الذي يريده؟ إن المسألة لا تتعلق بالمفاضلة بين معنيين وتقديم أحدهما على الآخر، وإنما بإدراك المعنى الضمني من خلال المعنى الظاهر، والمعنى الضمني لا يتم الوصول إليه إلا من خلال المستوى التداولي. ففي قول عز الدين المدني المتقدم "ما أجمل الحديقة" نجد أن المتهكم هو في الظاهر: الراوي والمتهكم منه: الحديقة، لكن على المستوى التداولي يمكن أن تكون أقوال الراوي هي أقوال عز المدني. أليست الحديقة هي رمز السلطة المنغلقة على

نفسها؟ فإذا أنزل القارئ النص في إطاره التاريخي وربطه بصاحبه وبسائر الحكايات، أمكنه التفطن إلى وجود تفكير نقدي معين يشد هذه الآثار ويعود إلى الكاتب الذي يتخذ من الراوي لسان حاله، أما المتهكم منه فهو في الظاهر الحديقة. لكن يمكن أن تكون السلطة أو المجتمع الذي لا يستطيع أن يفرق بين الجمال والقبح [٤١]. وبهذا نعلم أن استعمال اللغة من منظور التداولية غائي "فالتكلم يتمُّ لتحقيق غاية ما أو هدف معيّن أو إشباع حاجة محدّدة أو الحصول على فائدة، فلذا تستعمل اللغة للأغراض والمقاصد والمآرب ذاتها بصفة فعلية وعملية في سياقات مختلفة ومقامات متباينة"[٤٢].

القسم الثاني: المفارقة وأثرها في المتلقي

ذهب الناقد (ماكس بيربوم) إلى أن المفارقة ضرب من التأنق هدفها الأول: إحداث أبلغ الأثر بأقل الوسائل تبذيراً [٤٣]، وقال عنها عبد العزيز الأهواني بأنها "إثارة التعجيب في ظاهرتين متناقضتين، ولكن إحداهما لا تبطل الأخرى"[٤٤]. ورأى عبد الهادي خضير أنها "استثارة القارئ وتحفيز ذهنه لتجاوز المعنى الظاهري المناقض للعبارة والوصول إلى المعاني الخفيفة"[٤٥]. إن هذه المفاهيم تدور حول ركن مهم من أركان المفارقة وهو تفاعل المتلقي مع المفارقة؛ إذ لا بد للخطاب المفارقي أن يستثير المتلقي ويحفه بغية الوقوف عند المعنى المقصود، وقد قرنت الدراسات الحديثة بين المفارقة والمفاجأة بوصف إن الأخيرة تعني "الأثر الذي يخلفه نص أو عبارة في نص في وعي القارئ أو ذلك الاستنفار الذي تثيره المنبهات في القارئ وتجعله مستنفراً"[٤٦]. فالمفارقة أصبحت ينظر إليها حديثاً على أنها وصف لردود فعل القارئ إزاء تلك المنبهات أو المثيرات الكامنة في النص، فهي خصيصة أسلوبية فنية مشوقة تعمل على تجلية المعنى وإظهاره في صورة أبلغ وأجمل وأكثر تأثيراً مما لو أُدي بوسائل التعبير النمطية، فضلاً عن كونها تثير المتلقي وتذكي حيويته وتحفز مداركه، لما تمثله من هدم مستمر للثوابت، وكسر للمألوفات، مما يعمق تفاعله تدبراً واستنباطاً مشوبين بالمتعة الفنية، وهكذا يتنازع المفارقة أمران متلازمان، عقلي، وفني، إذ أنها تبدأ باستثارة المتلقي وتنتهي بفك رموزها واستكناه المراد على حقيقته [٤٧].

إن المفارقة تعبئة عقلية ذكية من أرقى أنواع النشاط العقلي؛ إذ هي على الرغم من أنها إستراتيجية في الإحباط واللامبالاة وخيبة الأمل، إلا أنها في الوقت نفسه تنطوي على جانب ايجابي، فهي سلاح هجومي فعال، وهذا السلاح هو الضحك الذي يتولد عن التوتر الحاد والمؤثر وليس عن الكوميديا [٤٨]. فهي تعمل –من خلال شكلها الفني المميز على انجاز ابلغ الأثر في المتلقي، فهي بذلك تلتقي مع مجال مهم من مجالات البحث التداولي وهو ما يسمى بنظرية "أفعال الكلام" والتي يقصد منها "كل منطوق ينهض على نظام شكلي دلالي انجازي

تـأثيري، ويعـد نشـاطاً ماديـاً نحويـاً يتوسـل أفعـالا قوليـة لتحقيـق إغـراض إنجازيـة (كالطلـب، والأمر، والوعد، والوعيد....الخ) وغايات تأثيرية تخص ردود فعل المتلقي (كالرفض، والقبول)، ومن ثم فهو يطمع إلى أن يكون ذا تأثير في المتلقي–اجتماعياً أو مؤسساتياً– ومن ثم انجاز شيء ما"[٤٩]. وفعل التأثير احد تقسيمات الفعل الكلامي حيث قسم "أوستين" الفعل الكلامي إلى ثلاثة أقسام:

١–الفعل اللفظي:

وهو يتألف من أصوات تنظم في تركيب نحوي صحيح ينتج عنه معنى محدد، وهو المعنى الأصلي، وله مرجع يحيل إليه.

٢–الفعل الإنجازي:

وهو ما يؤديه الفعل اللفظي من معنى إضافي يكمن خلف المعنى الأصلي.

٣–الفعل التأثيري:

وقصد به الأثر الذي يحدثه الفعل الإنجازي في المتلقي [٥٠].

واغلب الدارسين في التداولية ينظرون إلى الفعل الإنجازي على أنه هو المقصود من النظرية برمتها [٥١]، غير أن الفعل التأثيري في تصورنا لا يقل أهمية عن الفعل الإنجازي، فإذا كان الفعل الإنجازي هو وحده المعني في الاتصال، وحين يقول المتكلم شيئاً ما يحاول توصيل ما يعنيه للمتلقي، فإذا افلح يكون قد أدّى فعلاً تمريرياً (إنجازياً)؟ لذا فإن معيار مؤدى فعل المتكلم هو الأثر الذي سيظهر على المتلقي، ومن ثم فإن الفعل التأثيري هو فرصة للوقوف على سلامة وصول الرسالة أو سلامة الفعل الإنجازي.

إنّ النظرة التداولية ترى في اللغة "فعل مزود بقوة إنجازية وتأثيرية موجهة نحو المخاطب، فهي من جهة أولى قوة تتميز بالمقصدية اللغوية للذات المتكلمة، ومن جهة ثانية إلزام المخاطب بإتباع سلوك لغوي مناسب لمميزات هذه القوة، وفي هذه الحالة تكون هي نفسها فعلاً، فهي تفعل أو تؤدي إلى الفعل الذي تعبر عنه بطريقة مباشرة أو غير مباشرة". [٥٢].

وفعل التأثير يكون في المفارقة من خلال الأفعال غير المباشرة التي ينتقل فيها المعنى الحقيقي إلى معنى مجازي، وهي أفعال تحتاج إلى تأويل لإظهار قصدها الإنجازي كالاستعارة والكناية " إذ تجبر المستمع الانتقال من المعنى الحقيقي إلى المعنى الذي يسنده المتكلم إلى قوله"[٥٣]. وبما أن المفارقة تحمل قيمة مجازية عالية فهي بذلك تنجز أفعالاً كلامية مؤثرة تتنوع وظائفها داخل الخطاب بحسب الأهداف المتوخاة من استعمالها:

- فمنها ما هو متعلق ببنية المفارقة نفسها كالتكثيف مثلاً.
- ومنها ما هو متعلق بالمتكلم كتغييب المسؤولية الواضحة من القول.
- ومنها ما هو متعلق بالسامع كتحريك مخيلته.

ومنها ما هو متعلق بالمقام كإبداع صور جديدة لمعالجة بعض القضايا والوقائع [٥٤].

وبما أن المفارقة تخيل غير حرفي؛ فهي فعل لغوي وأدبي يختلف عن الأفعال اللغوية العادية التواصلية أو الإخبارية التي تعد حينية وظرفية تنتهي صلاحيتها بانتهاء مسبباتها، في حين الأفعال الأدبية – ومنها أفعال المفارقة– هي "أفعال حية تولد كل مرة من جديد، بسبب خصوصيتها الإبداعية، وكذا قدرتها على ممارسة حضورها بقوة في عدد غير محدود من السياقات، وعند عدد غير منته من الأشخاص، لأنها ليست مرتبطة بلحظتها الآنية، فعملية استهلاكها تعد عاملاً أساسياً في نموِّها وانتشارها لكونها غير منتهية بسبب طبيعتها غير القابلة للاحتواء والتحديد بعد كل قراءة"[٥٥] إن ممارسة أفعال المفارقة في الخطاب تستدعي اللجوء إلى لمسة خاصة وبصمة مميزة للخطاب الأدبي تجعله مختلفاً عن غيره، وهي الطريقة المخصوصة التي تحدد فعله وهويته، حتى وان كانت موجودة في الخطابات الأخرى نسبياً، فإنها بالنسبة إليه تعد مهيمنة ومتحكمة فيه، تعمل على إبراز نموذج خاص غير مكرر، بوصف أن ما يضاف إلى ذلك يتعلق بالذاتية والخصوصية التي تعني التفرد، كما إن هذه الخصوصية كلما كانت أكثر إبداعاً كلما كانت أقوى تأثيراً وأبقى في الزمن [٥٦]، كما في البيت المشهور لجرير حينما هجا الفرزدق وقال في حقه [٥٧]:

زعـــمَ الفـــرزدقُ أنْ ســـيقتلُ مربعـــاً فابشـــرْ بطـــولِ ســـلامةٍ يـــا مربـــعُ

فالظاهر من هذا الملفوظ الشعري أن جريراً يتحدث عن أمرين هما: سلامة مربع وتوعد الفرزدق بقتله، وقد جعل أحدهما علة للأخر، والواقع أنّ الشاعر أخفى وراء هذين المقصدين فعلاً كلامياً غير مباشر قامت عليه المفارقة والتأثير بعد ذلك. فالشاعر يريد أن يقول أنَّ الفرزدق جبان، رعديد، وليس ممن يخشى خطره أو تهديده، والفعل "أبشر" في بداية الشطر الثاني يشير إلى هدف النص المضمر، فالبشرى بالسلامة فعل انجازي مؤثر؛ لأنه يخفي تأكيداً لصدق العبارة التي هي وظيفة النص المضمرة، والوسيلة اللغوية المستخدمة ها هنا صورة مفارقة لا تخلو من تهكم لاذع وسخرية مريرة، فقد جمع طول السلامة مع التهديد بالقتل، تأكيداً لجبن الفرزدق.

وعلى هذا النحو جاءت المعلومة (زعم)، والفعل (أبشر) لتعبرا بالتضاد عن تلك الوظيفة الإعلامية المؤثرة ، "فالصياغة اللغوية للموضوعين توجه رسالة إعلامية لمتلق هو (مربع) ومتلق أخر هو الذي يعنيه المرسل بتهكمه وسخريته وهو الفرزدق"[٥٨]، هذا فضلا عن الوظيفة الجدلية، فهو بلا ريب ينفى ادعاء سابقاً مشفوعاً بما يشبه الحجة.

ومن الملفوظات الشعرية المؤثرة في المفارقة قول المتنبي يخاطب سيف الدولة الحمداني[٥٩]:

يـــا أعـــدلَ النـــاسِ إلا فـــي معـــاملتي فيـــكَ الخصـــامُ وأنـــتَ الخصـــمُ والحكـــمُ

حيث جاءت فاعلية هذا الملفوظ في استثارة وعي المتلقي وإدهاشه، من خلال المزج بين المتناقضات في هذا الكيان اللغوي القائم على تقنية المفارقة، فالتناقض الظاهر في (يا أعدل الناس/إلا في معاملتي) و (أنت الخصم/والحكم). والذي يجمع فيه الشاعر بين المتناقضين: العدل واللا عدل، والخصم والحكم، يفاجئ المتلقي ويكسر توقعه، فإذا كان الأمير أعدل الناس في نظر الشاعر فكيف يصفه بأقبح الجور؟، وإذا كان الحكم لا يكون طرفاً في الخصومة على الحقيقة فكيف يكو ن الخصم هو الحكم في أن وفي ذات الخصومة في نظر الشاعر، وهل من العدل أو من المنطق أن يكون الخصم حكماً للقضية نفسها، لعل هذه المفارقة الجادة المبنية على التناقض بين العدل الإنساني المطلق والظلم الجاثم، تجعل العبارة غير قابلة للفهم على المستوى السطحي، الأمر الذي يجعل المتلقي يلح في متابعة التلميحات لاكتشاف الكامن خلف الملفوظ الذي جاء تجسيداً لسخرية الواقع المرير الذي انقلبت فيه موازين الحق والعدل والمنطق، ينصف فيه من لا يستحقه من المنافقين والكذابين ويظلم ولا ينصف فيه ذوو المروءة والفضيلة [٦٠]، وربما لذلك خاطب الشاعر الأمير بـ (يا اعدل الناس) تأكيداً لعدله وإيقاظاً لهذا العدل النائم واستفزازاً له لتفعيله بعيداً عن بطانة السوء من المرائين والمنافقين، ورغبة من الشاعر في استحضار هذا العدل المفقود في واقعه والذي هو حاجة ملحة من أجل حفظ الحقوق وطمأنة النفوس واستقرار الأمة، العدل الذي طمح إليه الشاعر وتطلع إليه عند الأمير لما له من فعل التأثير في تغيير الواقع.

الخاتمة:

قدّمت المفارقة نفسها –في كثير من الخطابات– على أنها نموذج سامٍ للاختيار تعتمد في ذلك على كثافتها وعدم شفافيتها. ومع ذلك فهي من أكثر الخطابات انسجاماً مع مبادئ الخطاب التي تحدث عنها التداوليون، سيما أنها محملة بمقاصد ودلالات كثيرة تؤدي بالنتيجة إلى فعل التأثير في المتلقي وفي اختياراته.

الهوامش

(١) ينظر: الفلسفة والتواصل: الرهان والممكن، عز الدين النازي، مجلة فكر ونقد العدد ٣٩، ٢٠٠١، www.aljabriabed.net

(٢) ينظر: شعرية السخرية في القصة القصيرة الوظائف التداولية للخطاب، محمد المزموري:٧٥، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الجزائر، ٢٠٠٧.

(٣) ينظر: المصدر نفسه:٧٦.

(٤) ينظر: شعرية السخرية في القصة القصيرة الوظائف التداولية للخطاب، محمد المزموري:٧٦.

(٥) ينظر: الفينومينولوجيا وفن التأويل، محمد شوقي الزين: ٦٧ مجلة فكر ونقد، العدد ١٦، ١٩٩٩.www.algabriabed.net

(٦) القصدية من فلسفة العقل إلى فلسفة اللغة: دلال وش:٨٧، مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة محمد الخضير، الجزائر، العدد ٦، سنة ٢٠١٠.

(٧) المفارقة وصفاتها، د. سي. ميوك: ٢٩، ترجمة د. عبدالواحد لؤلؤة، بغداد، دار المأمون للترجمة والنشر، العراق، ١٩٨٧.

(٨) ينظر: المفارقة (موسوعة المصطلح)، د . سي، ميوك: ٤٩، ترجمة د. عبدالواحد لؤلؤة ، موسوعة المصطلح النقدي، منشورات وزارة الثقافة والاعلام، دار الرشيد، العراق، ١٩٨٢.

(٩) ينظر: شعرية السخرية في القصة القصيرة: ٨٤.

(١٠) المصدر نفسه: ٨٥.

(١١) ينظر: استراتيجيات الخطاب مقارنة لغوية تداولية، ظافر الشهري: ١٢٦، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، لبنان، ط٤، ٢٠٠٩.

(١٢) في اللسانيات التداولية، د. خليفة بوجادي: ٧١، بيت الحكمة، الجزائر، ط١، ٢٠٠٩.

(١٣) ينظر: التداولية عند العلماء العرب، د. مسعود صحراوي: ١٨٦، دار الطبيعة، بيروت، لبنان، ط١، ٢٠٠٥م.

(١٤) ينظر: المفارقة في شعر عدنان الصائغ، ديوان (صراخ بحجم وطن)، نموذجاً، د. قاسم البريسم www.adnanalsagyeg.com

(١٥) ينظر: المفارقة وصفاتها: ١٣.

(١٦) التداولية في الفكر الانجلو سكسوني، قدير شناص: ٣٢، مجلة اللغة والأدب، كلية الآداب واللغات، جامعة الجزائر، العدد ٢١٧، سنة ٢٠٠٦.

(١٧) هذه المقولة مستوحاة من نص شعري لشاعر فرنسي والنص:
La terre est bleue comme une orange الأرضُ زرقاءٌ كبرتقالة. ينظر: الأدب بين الفلسفة والإسلام، د. محمد علي الرباوي، موقع رابطة أدباء الشام: www.odabasham.net.

(١٨) ينظر: تداوليات التأويل، عبد السلام إسماعيل علوي، بحث مقدم ضمن كتاب: التداوليات علم استعمال اللغة، إعداد وتقديم د. حافظ إسماعيل علوي: ٢٢٠–٢٢١، عالم الكتب الحديث، اربد، الأردن، ط١، ٢٠١١.

(١٩) ديوان المتنبي: ٧٠/٤، شرح أبي البقاء العكبري، ضبط نصه وصححه كمال أبو طالب، منشورات دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط١، ١٩٩٧.

(٢٠) ينظر: المتوقع والا متوقع في شعر المتنبي، د. نوال مصطفى إبراهيم: ٧٥، دار جرير، عمان، الاردن، ط١، ٢٠٠٨.

(٢١) ينظر: المصدر نفسه، ٧٦.

(٢٢) ينظر: التهكم، البشر نقرة: ٥٠، مجلة المورد التونسية، آداب القيروان، جامعة قيروان، التونس، العدد ٦، سنة ٢٠٠٤.

(٢٣) ينظر: أثر التنغيم في توجيه الأغراض البلاغية لعلم المعاني، د. مزاحم مطر حسين: ٣٩، مجلة القادسية، كلية الآداب والعلوم التربوية، جامعة القادسية، العراق، العددان (٣–٤)، المجلد ٦ سنة ٢٠٠٦.

(٢٤) ينظر: دراسة السمع والكلام، صوتيات اللغة من الإنتاج إلى الإدراك، سعد مصلوح: ٢٥٢، عالم الكتب، القاهرة، مصر، د.ط ٢٠٠٠م.

(٢٥) ينظر: المفارقة اللغوية في معهود الخطاب العربي، د. عاصم شحادة علي: ٧، مجلة الأثر، جامعة قاصدي مرباح ورقلة، الجزائر، العدد ١٠، السنة ٢٠١١.

(٢٦) استراتيجيات الخطاب: ١٢٥.

(٢٧) ينظر: المصدر نفسه: ١٢٦.

(٢٨) ينظر: ما هي السيمولوجيا: بارنار توسان: ١٠، ترجمة، محمد نظيف، دار إفريقيا الشرق، الدار البيضاء، المغرب، ط٢، ٢٠٠٠.

(٢٩) ينظر: المنهج التداولي في مقاربة الخطاب، (المفهوم، المبادئ، الحدود)، نواري سعودي أبو زيد : ١٢٣، مجلة فصول، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، مصر، العدد ٧٧، السنة ٢٠١٠.

(٣٠) ينظر: المصدر نفسه: ١٢٣.

(٣١) تبسيط التداولية، ، من أفعال اللغة إلى بلاغة الخطاب السياسي، بهاء الدين محمد مزيد: ١٩، مؤسسة شمس، القاهرة، مصر، ط١، ٢٠١٠.

(٣٢) تعديل القوة الإنجازية، محمد العبد: : ٣٣١، بحث مقدم ضمن كتاب التداوليات علم استعمال اللغة (مجموعة باحثين)، إعداد وتقديم د.حافظ إسماعيل علوي، عالم الكتب الحديث، اربد، الأردن، ط١، ٢٠١١.

(٣٣) ينظر: السياق ومقتضى الحال في مفتاح العلوم، باديس لهويمل:١٦٥، مجلة المخبر، أبحاث في اللغة والأدب، جامعة بسكرة، الجزائر، العدد ٩، ٢٠١٣.

(٣٤) ينظر: عندما نتواصل نغير، د. عبد السلام عشير: ١٠١، إفريقيا الشرق، الدار البيضاء، المغرب، د.ط، ٢٠٠٩.

(٣٥) الخطيئة والتكفير، من البنيوية إلى التشريحية قراءة نقدية لنموذج إنساني معاصر، د. عبد الله الغذامي: ٧، النادي الأدبي الثقافي، السعودية، ط١، ١٩٨٥.

(٣٦) ينظر: السياق وأثره في المعنى، د. المهدي إبراهيم الغويل: ١٧، أكاديمية الفكر الجماهيري، بنغازي، ليبيا، د.ط، ٢٠١١.

(٣٧) السياق ومقتضى الحال:١٦٨.

(٣٨) من حكايات هذا الزمان –حكاية العقاب–: عز الدين المدني: ٨–١٣، دار شوقي، تونس، د.ط، ١٩٩٧.

(٣٩) ينظر: التهكم: ٥٤–٥٠.

(٤٠) ينظر: التهكم: ٥٩.

(٤١) ينظر: التهكم: ٦٤.

(٤٢) اللغة ودلالاتها، محمد سويرتي: ٣٠، مجلة عالم الفكر، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، المجلد ٢٨، العدد ٣، سنة ٢٠٠٠.

(٤٣) ينظر: المفارقة وصفاتها: ٦٣.

(٤٤) ابن سناء الملك ومشكلة العقم والابتكار في الشعر، د. عبد العزيز الأهواني: ٩٠، دار الشؤون الثقافية، بغداد، ط٢، ١٩٨٦.

(٤٥) المفارقة في شعر المتنبي: ٩١.

(٤٦) المتوقع واللا متوقع، دراسة في جمالية التلقي، د. موسى ربابعة: ٤٧، مجلة أبحاث اليرموك، سلسلة الآداب واللغويات، الأردن، العدد ٢، المجلد ١٥، السنة ١٩٩٧.

(٤٧) ينظر: المفارقة عند الخوارزمي، تغريد ضياء مشفي: ٨٨، مجلة آداب المستنصرية، جامعة المستنصرية، بغداد، العدد ٤٧، ٢٠٠٧.

(٤٨) ينظر: المفارقة والغرائبية في القصة القصيرة، باسم عبدو، صحيفة تشرين السورية ww.tishreen.news.sy

(٤٩) التداولية عند العلماء العرب، (دراسة تداولية لظاهرة الأفعال الكلامية في التراث اللساني العربي، د. مسعود صحراوي: ١٧، دار الطبيعة، بيروت، لبنان، ط١، ٢٠٠٥م.

(٥٠) ينظر: التداولية عند العلماء العرب: ١٧.

(٥١) إستراتيجية الخطاب الشعري: ١٧٧.

(٥٢) المصدر نفسه: ١٧٧.

(٥٣) مدخل إلى اللسانيات التداولية، الجيلاني دلاش: ٦٩، ترجمة، محمد يحياتن، د.ط، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ١٩٩٢.

(٥٤) ينظر: عندما نتواصل نغير: ١٢٢.

(٥٥) إستراتيجية الخطاب الشعري: ٥٤.

(٥٦) ينظر: المصدر نفسه: ٥٥.

(٥٧) ديوان جرير: ٢٦١.

(٥٨) ينظر: تحليل النصوص من منظور تداولي، آراء وأفكار، د. إبراهيم خليل، صحيفة قاب قوسين، www.qabaqaosayn.com

(٥٩) ديوان المتنبي: ٣٨٧/٣.

(٦٠) ينظر: المتوقع واللا متوقع في شعر المتنبي: ٢٥٠–٢٥٣.

The term paradox pragmatics

Entrance cash

Assistant Professor Dr. Abdullah Berm Younis

Soran University

Abstract

Become a paradox focus of attention of scholars past until it became a term often frequented cash in contemporary critical studies. I have found the paradox welcomed her place in the deliberative studies pragmatics. This research is an attempt to find out when the key aspects that bind paradox with modern sayings pragmatic, and to highlight the term paradox which is pragmatics through humanitarian exchanges and behaviors in various literary discourses.

This research has addressed two important aspects through which met paradox for pragmatics. And formed a term paradox pragmatics.

The first aspect: the paradox and intentionality.

The second aspect: the paradox and its impact on the receiver.